امرأة قوية العزيمة

تستهوينا سوزان فالادون كامرأة فنانة، وكشخصية قوية الإرادة، فقد رفضت أن تواصل حياتها أجيرة، تقف أمام المصورين كى يرسموها، وتمكنت أن تمسك هى بالقلم وترسم، بلا تعليم كبير، ولا ثقافة تذكر، تتحول فتاة الملاهى سوزان من مجرد جسم جميل يلتقط أنظار الرجال إلى عقل مدير مبتكر، من مجرد دمية إلى علم من أعلام الفن الحديث.

فقيرة وجميلة لفتت إليها الأنظار:

ولدت سوزان فالادون فى الريف الفرنسى عام ١٨٦٥، وماتت فى باريس عام ١٩٣٨، وعاشت حياة ليست سهلة، وفى صباها كانت سوزان نجمة مرموقة فى الحانات والمراقص الباريسية، كما كانت تعمل أيضا أنموذجا للمصورين، وتكسب من ذلك عيشها، كانت جميلة، جريئة، تتدفق حيوية، وفقيرة لفتت أنظار عديد من مشاهير المصورين فى تلك الأيام، ومنهم رينوار الذى كان معجبًا ببشرتها الوضاءة، وبوفى دى شاقان الذى رسم قوامها الممشوق فى كثير من لوحاته الأسطورية، وتولوز لوتريك الذى استلفتته نظرتها الجميلة التى لم تكن تخلو مع ذلك من شرود وحزن، وفى سن الثامنة عشرة أنجبت من أب مجهول ابنها موريس الذى سيصبح

فيما بعد مصورًا ذائع الصيت، ومن ذا الذى لا يعرف موريس أوتريللو (١٨٧٤-١٩٤٧) رسام الشوارع والأحياء الباريسية؟ وركنت سوزان الأم إلى حياة أكثر تفردًا، وأخذت ترسم بدلاً من أن تجلس أمام المصورين كى يرسموها، وقالت فى هذا الصدد: إنها بدأت ترسم مثل مجنونة، ولم يكن همها أن تنتج صورًا جميلة، تستهوى الأنظار كى تعلق فى أطر على الحوائط للزينة، بل عنيت أن ترسم رسومًا متقنة تلتقط لحظة صدق من حياة كل يوم، لحظة مفعمة بالحركة ومشحونة بكثافة تلك الحياة الواقعية، وقد كان المصور حاد النظرة سليط اللسان تولوز لوتريك جارًا لها، وعندما رأى رسومها شجعها بحماس شديد غير مألوف عنه، ومالبث المصور القدير ادجار ديجاه، المصور الانطباعى الذى صور لراقصات الباليه أصدق اللوحات أن انضم إلى لوتريك فى إعجابه برسوم سوزان فالادون، واشترى بعضًا منها، وقد كان هدف سوزان فالادون مثلها كان هدف كل من ديجاه ولوتريك، هو أن تكون دقيقة الملاحظة للحياة الواقعية، ومن خلال دقة ملاحظتها هذه أمكنها أن تلتقط دون أن تبتدع، فقد كانت تريد أن «تسجل» الحياة اليومية لا أن تتعداها أو تعلو عليها، ولهذا فإن رسومها تنطوى على تعبير قوى للشكل الانسانى فى اطار من الخطوط الصارمة بل والقاسية أيضا، فهى كما قلنا فى رسومها لاتتملق بل تعمد إلى المواجهة والمصارحة.

وما شأنى أنا بغيرى؟

والذى يستحق الإعجاب فى أعمال سوزان فالادون، التى بدأت كما رأينا بداية عصامية تمامًا، هو أنها وإن كانت قد ترددت على مراسم فنانين

كبار وعلقت أنظارها طويلاً بأعمالهم، إلا أنها عندما بدأت تمارس الرسم لنفسها وبنفسها، فإنها لم تبد تأثرًا بأى من هؤلاء الفنانين الكبار، وهو ما يشير إلى استقلال فى الشخصية، ستتابعها فى كل أعمالها، وكانت فى هذا الصدد تقول: إنه ليس ثمة ما هو مشترك بينى وبينهم، فأنا فى رسومى أنظر إلى الحياة بنفسى، ويعنينى أن أسجل فيها ما أراه أنا نفسى لا ما رآه أحد غيرى، وما شأنى أنا بغيرى؟ على أنها تعترف بأنها تأثرت بأسلوب جوجان والذين نهجوا منهجه ممن أطلقوا على أنفسهم «مدرسة بونت آفين» وقد استهواها فى أسلوب هذا الفنان الوحشى الانطباعى مقوماته الزخرفية المستترة.

ومنذ عام ١٩٠٩ كفت سوزان فالادون عن الرسم واتجهت إلى التصوير الزيتى وأنتجت بعض المناظر الطبيعية، وإن كانت لم تفقد اهتمامها الأصلى بالجسم الإنسانى، كما صورت بعض لوحات من الطبيعة الصامتة، وفى لوحاتها كما فى رسومها نلمس قوة التعبير وحدة الملاحظة، على أن اللون لا يتمشى مستواه على الدوام مع إبرازها للخط، وهو ما ينتج عنه أن لوحاتها تعطى الانطباع بأنها مجرد رسوم ملونة، ولكن ماذا فى هذا، إن قوة التعبير النابعة عن شخصية قوية تعوض كل ما يمكن أن يشوب العمل من هنات. كما أن سوزان فالادون قد استطاعت فى بعض لوحات ممتازة أن تتجاوز غلبة الخط عندها على اللون، فأعطتنا أعمالا يفخر بها الفن الحديث، ويعجز عن أن ينتج مثلها أكثر المصورين حنكة من الرجال، بل وأكبر المثقفين رجالاً أو نساء على السواء، لقد كانت هذه المرأة الفنانة، سوزان فالادون، التى لم تتلق من التعليم شيئًا، ولم يتح لها من رغد العيش شيئًا، أن تصل من الحضيض إلى القمة، وأن

تبتدع أسلوبا متفردا ينم عما اتصفت به هذه المرأة التى بزت الرجال وفاقت عليهم، من عزيمة قوية، وهذا هو الدرس الذى تلقننا إياه هذه الفنانة، ببقايا أقلام وألوان جمعتها من مراسم الفنانين الذين كانوا يستأجرونها. استطاعت أن تبنى عالمًا خاصًا بها وغنيًا بكل ما يجيش فى قلب بشرى من طموحات، وبكل ما تشحن به عين من تعطش إلى رشف كأس المرئيات حتى الثمالة.

رغم اختلاف المزاج

صوفى تاوبر - آرب فنانة مصورة سويسرية، ولدت عام ١٨٨٩ وماتت عام ١٩٤٣، درست الفنون التطبيقية فى ميونيخ وهامبورج، وعملت مدرسة للفن مدة ثلاثة عشر عامًا بمدرسة الحرف والفنون بزيوريخ، وتعتبر هذه الفنانة رائدة من رواد الفن الحديث بحق، مارست شطحاته بانضمامها إلى «المدرسة الدادية» كما مارست عقلانيته المفرطة بانضمامها إلى «التجريدية الهندسية» واشتراكها فى جماعات مثل «جماعة الدائرة والمربع».

وفى خضم اهتماماتها التشكيلية، وتحمسها للنزعة التمردية على كل ما هو راسخ ومستقر التقت بالفنان المصور الشاعر الفرنسى هانز آرب عام ١٩١٥، وتزوجته عام ١٩٢١، وقد أنتجت الفنانة صوفى تاوبر - آرب التى جمعت فى لقبها بين لقبى أسرتها وأسرة زوجها - أنتجت فى ستراسبورج لوحات حائطية وأخرى من الزجاج الملون، وأسهمت فى تزيين حوائط عدة قاعات من مطعم «الأوبيت» الذى ما عاد له وجود الآن بعد أن تهدم واندثر، وفى الفترة من ١٩٢٨ إلى ١٩٤٠ عاشت مع زوجها بالقرب من باريس واشتركت فى معارض التجريديين الهندسيين التى أقيمت آنذاك، عارضة على الأخص أعمالاً ذات طابع هندسى

مفرط، كما أنها أصدرت مجلة فنية بعنوان (تشكيل)، اتصفت بدفاعها المتحمس للنزعة التجديدية الابتكارية فى التصوير الحديث، وقد صور من هذه المجلة أربعة أعداد ما بين عامى ١٩٣٧ و ١٩٣٩، وقد نزحت عن فرنسا لاجئة إلى سويسرا إزاء زحف القوات النازية الألمانية، وهناك اشتركت فى أعمال جماعية مع آرب وسونيا ديلوناى والبيرتو مانيللى وثلاثتهم من المصورين التجريديين المبتكرين، ولكن صوفى ما لبثت أن ماتت إثر حادث أليم، إذ حاصرتها أدخنة المدفأة فخنقتها، وقد تركت صوفى عددًا كبيرًا من اللوحات المائية والزيتية والرسوم، تميزت على الأخص ببساطتها وابتكاريتها، ولا شك أنها كانت من الشخصيات المحورية فى تطور الفن التجريدى فيما بين الحربين العالميتين بتفاؤلها وروحها القوية، وبعشقها الشديد للتحرر من أسار كل عبودية.

الصدفة والخطوات المحسوبة:

وتفتح صوفى تاوبر - آرب الباب من أجل إطلالة سريعة على إحدى المدارس الفنية الحديثة وهى «الدادية» التى اشتركت مع زوجها هانز آرب والشاعر الرومانى تريستان تزارا فى إرساء دعائمها فيما بين عامى ١٩١٥ و١٩٢٢، وقد اشتعلت الدادية سريعا وانطفأت سريعا أيضًا ، فقد كانت تعبيرًا صادقًا عن أحاسيس خيبة الأمل والإخفاق التى استشعرها الإنسان الأوربى بعد الحرب العالمية الأولى، وتخليه عن الإيمان بالمسلمات السابقة على هذه الحرب، والتى قامت من أجل الدفاع عنها، وقد كانت التمهيد لمجىء «السريالية» من بعدها لتقوم على دعائم أكثر إيجابية بعد أن تزلزلت دعائم الدادية السلبية العدمية، وفى ظل الدادية ابتدع هانز

آرب أشكاله التى سميت «بالأشكال الحرة» المتولدة من ألاعيب الصدفة وشطحات الخيال والعقل الباطن.

والخطوات المحسوبة:

وقد مضى آرب وصوفى يعملان ويبدعان حتى بعد انطفاء «الدادية»، وقد كانت ابتكارات الزوج أكثر حرية بينما اتصفت ابتكارات الزوجة بمزيد من الصرامة، وهذا هو الشىء الذى يستوقف النظر عند مقارنة أعمال المرأة والرجل فى عطاء هذين الزوجين اللذين عاشا حياتهما الزوجية فى وفاق تام على الرغم من اختلاف مزاج كل منهما الفنى، وربما علق حكيم على ذلك بأن كلا منهما كان بذلك يكمل الآخر، مما حقق لزواجهما التوازن والاستقرار. كان هانز آرب يعلى الصدفة والمفاجأة، ويعول عليهما كثيرا فى العطاء الفنى ، بينما تمسكت صوفى كثيرًا بالقانون والخطوات المحسوبة بدقة، ولهذا فلم يطق هانز آرب مبدع الدادية الأكاديمية فى شبابه، وذهب يبحث عن بول كلى وواسيلى كاندينسكى، ويشترك مع التعبيريين الألمان فى أول معارضهم ومن قبلهم انضم إلى صفوف «الفارس الأزرق» وهى إحدى مدارس الفن الحديث تجمعت فى ألمانيا لتبدى معارضتها على القيم الجمالية البالية والمفروضة على الذوق، إما بقوة التقاليد، أو بسطوة التزمت، وفى عام ١٩٢٥ نشر مع زميل آخر كتابًا تضمن عرضًا لكل التيارات الحديثة الفن، وقد أظهر على صفحات كتابه هذا تفهمه العميق لمعنى الحداثة، ولتياراتها المختلفة، ولم ينقطع آرب عن نظم الشعر سواء بالفرنسية أو الألمانية وهما لغتان كان يجيدهما حق

الإجادة، وقد أثبتت أعمال آرب مبلغ الصلة الروحية الوثيقة بين الفن التشكيلى والشعر.

وقد كانت وفاة زوجته صوفى صدمة كبيرة بالنسبة لهانز آرب، لكنه مضى يجد عزاءه فى الفن والشعر وقد ارتسمت ذكرى الزوجة الحبيبة فى كثير من أبيات ديوانيه «أحلام ومشاريع» الذى نشر فى نيويورك عام ١٩٥٢، و «أحلام العالم والنجوم السوداء» الذى نشر بالألمانية عام ١٩٥٣، وقد أقيمت معارض عديدة لآرب بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، وكان أكبر هذه المعارض المعرض الشامل لأعماله فى «متحف الفن الحديث» بباريس عام ١٩٦٢.

روح الزوجة تبارك خطى الفنان:

لقد باركت روح الزوجة خطى الفنان من بعدها، فمضى الزوج يكسب الشهرة وذيوع الصيت ويسطر اسمه فى تاريخ الفن الحديث كمعلم من معالمه، وقد كان هانز آرب فنانًا مرهف الحس يبحث عن الأشكال الخالصة، أى الأشكال لذاتها دون أن تكون مطية لمعانى أو انفعالات من خارجها، وكان على الدوام يحب أن يتذكر قول زوجته الحبيبة صوفى تاوير من أن الفن مثل ثمرة يجب أن تنضج داخل الإنسان على النحو الذى تنضج به الثمار الأخرى على الشجر، والواقع أن كثيرًا من أعماله توحى بليونة العالم النباتى وانسيابيته دون أى تعمد على أى حال إلى تقليد، أومحاكاة، وقد شغل هانز آرب على الدوام مثلما شغلت زوجته من قبل بأن يرسم ويصور بالسهولة والطبيعية التى يمشى بها، وأن يشكل تصاويره بالبساطة التى يتنفس بها، وهذا ما كانت تقوله زوجته

صوفى تاوير أيضا، ويعتبر هانز آرب مفرق طريق هام بين دروب الدادية والسريالية والتجريدية، وهو يجلب إلى الفن الحديث، سواء كان تصويرًا أو لصقًا أو نحتًا أو شعرًا، نسمة من البساطة والسهولة والهدوء، إنه ابتسامة فى وجه العصر المقطب الملىء بالتجاعيد، وفرجة صافية فى سماء ملبدة بغيوم عصر الآلة والتكنولوجيا، لقد كانت صوفى آرب من المبشرين بفن القرن العشرين المعتمد على الأشكال الهندسية والألوان الخالصة، ولكنها لم تتخل شأنها فى ذلك شأن زوجها هانز آرب عن اليقين بأن الهندسيات والتكعيبيات والتجريديات إذا ما أريد لها أن تظل ممارسات لفن إنسانى فلابد أن تنبض بنبضٍ من الطلاوة والبراءة الطفولية.